

طُوق الْحَمَامَةِ

فِي الْأَلْفَةِ وَالْأَلَفِ

تَأَلَّفَ

الْإِمَامُ الْفَقِيهُ

أَبِي مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ حَزْمٍ

الْمُتَوَفَّى ٤٥٦ هـ



وقدم له

الاستاذ ابراهيم البياري

حققه وصوبه وفهرس له

الاستاذ حسن كامل الصبري

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف وتقدير

بقلم

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الحديث عن ابن حزم أبي محمد على يلفتنا إلى الرجوع إلى آبائه وحيث أوطنوا ، فهو كما يقول العارفون بالأنساب ، ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن صفيان بن يزيد ، مولى يزيد بن أبي سفیان . فهو من أسرة شرقية ، أول نازح منها إلى الأندلس « خلف » ، ولم تكن « لبلة » التي في غير الأندلس ، والتي اتخذها الآباء موطنهم ، مقام خلف ، الأول فيما نظن ، ولا نسمعنا المصادر بشيء مجمل أو مفصل عن تلك الأيام الخالية من حياة الجد النازح ، ولكننا نكاد نلمس من تنشئة ابن حزم وأبيه أبي عمرو أحمد بن سعيد أن الأسرة كانت على إرث من علم وآخر من نباهة وجاء مكننا للوالد ثم لابن من بعده في أن يكونا بين رجالات الدولة المقدورين ومن أعلامها للبرزين ، وأن يزر ابن حزم للمستظهر بالله عبد الرحمن ثم للمعتمد بالله ، بعد أن وزر أبوه للمنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ولا بنه المظفر بعده .

وكانت الرغبة في العلم والإفادة منه شغل ابن حزم الشاغل ، وأعباء الوزارة صارفة ، والاضطلاع بمهام الدولة معوق ، بله ما يحاك لأولى الأمر من دس ، وبيت لهم بليل ، ويزور عليهم من قول ، فهذا إلى غيره يعوزه رجل لا يفرغ

إلا له ولا يلتفت لسواه ، إن كلف بالبقاء للحكم يديره ، وشاء أن يخلص للنصب يحميه . ولم تكن تلك ذات نفس ابن حزم ، فالرجل كان عالما قبل أن يكون وزيرا ، مقبلا على الاستزادة من العلم ، مشغوقا بالنظر فيه والتأليف عنه ، حريصا على أن تشيع له آراؤه وتخلد نظراته ، لهذا برم بما يرغب فيه غيره ، وانصرف عن جاه الحكم إلى جاه العلم يكتب وينظر ويحاج .

ولسنا ممن يرى الأمر رغبة صرفت عن أختها ، ولكننا نكاد نخال ^بابن حزم فترة نشأ بها ، وضعفا لم يملك القوة عليه ، ثم غلبة لخصومه ، وحيلة ظافرة ، وكلمة مسموعة . فليس في طبع الانسان أن يعدل عن جاه مطموح فيه إلى عزلة وانزواء لهذا الذي يذكره الذاكرون عن ابن حزم من رغبة في العلم والانتفاع له . والرجل نافث على أعدائه ، واغر الصدر عليهم ، متربص بهم ، راج أن يدل منهم كما أدالوا منه ، تسمع له ذلك بين سطور كتابه هذا الذي نقدمه . ومن يحمل لخصومه ما حمل ابن حزم بعيد أن بتك الحكم راغبا عنه زاهدا فيه لرغبة في العلم والافادة منه ، ولكن شيئا آخر جدير أن يُضم إلى تلك الرغبة وذلك الزهد ، هو قلة حيلة ابن حزم عن أن يصمد لخصومه ، وضيق طهرم ذرعا . فهرب إلى حيث يجد مأمنه ، وفرغ إلى حيث يرى أنه بمنجاة من أخطام ، وخلص إلى علمه وكتبه .

ولغير الجاه الزمى عادى المعادون ابن حزم ، أو قل إن أردت أن تكون مع الحقيقة ، لم يكن هذا وحده داعى لخصومة وباعث هذه الشر ، بل كان أكثره هذا الذي فرّ إليه ابن حزم يرجو فيه الهدأة والطمانينة .

فالرجل كان على رأى لا يقره عليه العلماء من حوله ، كان ظاهريا صريحا في غير موارد ، جريئا لاتلين له قناة ، قانلا بما يعتقد ، ناطقا عن فكره صقلته البيئة الأندلسية بما تضم من رفاهية حرة ، وغذته من تقاليد شائعة موروثه .

وتحفة طويلة كالحقبة التي نشأت ابن حزم كفيلة بأن تزيد وتشكل ، وتغير

وتبدل في مفهوم من هم على طواعية واستجابة لداعى البيئته وحاديها ، وما بنا أن
نكشف لك أوجه الخلاف بين ابن حزم ومساجليه ، فذلك شيء يطول ومرده
إلى ما ألف ، وإلى ما تعلم عن كل ظاهري ، ولكنك واجد في تنكر الناس لرأيه
ونفرتهم من قوله ما يفتك على أن ابن حزم كان على غير ما يرى الناس ، وأن الناس
كانوا على غير ما يرى ، وأنهم رأوه ضالاً منحرفاً ، فسعوا به وحرخوا له العامة
فامتدت أيديهم إلى كتبه حرقاً وتمزيقاً ، وهو لا يملك إلا أن يقول :

وإن تحرقوا القراطاص لا تحرقوا الذي تضمنه القراطاص بل هو في صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن في قبرى
دعوى من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
ولا فعودوا فى المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر

وفى ابن حزم منهم بعدما فر من الوزارة حيث يصيب الأمن المنشود ، والمقر
الموجود ، يترك بادية إلى بادية ، وقد ضيق عليه في مراده ، فيقول في حساده :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيى أن مطلعى الغرب
وإن رجلاً ضيعونى لضيع وإن زماناً لم أنل خصبه جذب

ولا أحيلك على غير موجود لتفيد شيئاً عن ابن حزم وتعرف من رأيه ، فبين
يديك كتابه « طوق الحمامة » لم يسكت فيه الرجل عن شيء رآه يقوم دليلاً على
ما يرى إلا ذكره ، ولا يطوى فيه ما درج الناس على أن يطووا مثله ، فهو يرى
أنه بسايل التدليل على فكرة ، وما أحوج الفكرة إلا أن تبسط معها أدلتها
وشواهد لها لتثبت وتصح . والحب وما إليه شيء أف الناس أن يكتبوا أسرارهم
ويخفوا ما يحيط به ، وأن ينزهوا أنفسهم عن معاقبه ويظهروا البراءة من مآخذة ،
وأن يطلعوا على الناس فى غير مظانه ، بعداء عن أسبابه . ويرى ابن حزم أن يعلن
حيث يسرون ، ويجهز حين يكتبون ، إذ الحقيقة لا يحصنها إلا أن يشيع عنها ما لها

وما عليها ، ويمهد لدرسها بكل ما يتصل بها . فانطلق يورد له وللجدة من حوله ما عُرف لهم وسمع عنهم ، في غير استحياء ولا نقصان ، لا يريد تشهيراً فيما نعلم ، ولكنه أسلوبه في الدرس ، وطريقته في التمهيص .

هذا مثل لابن حزم يدل على نهجه في التفكير وطريقه في الدرس تستطيع أن تعرف به الرجل بعض المعرفة ، ويكشف لك عن شيء مما أثاره الناس حوله وكان سبباً لتلك الحرب التي صلى بها إلى أن مات رحمه الله سنة ٤٥٦ من الهجرة .

أما عن علم الرجل وطول باعه فيه وجلده عليه وسهره له فشيء تناقله الرواة وكتبه له المؤرخون . ذكروا أن الباجي أبا الوليد سليمان شارح الموطأ اجتمع به يوماً يناظره فقال له الباجي وهو يحاوره : أنا أعظم منك همة في طاب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمسكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل . فقال له ابن حزم : هذا كلام عليك لا لك ، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالي ، ولكني طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى .

وفيه يقول ابن بشكوال : كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار .

وقريب من هذا قول أبي مروان بن جيان فيما يروى عنه : كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع للمشاركة في كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة .

وما دمنا قد رجعنا إلى الأثبات نذكر لهم رأيهم في ابن حزم ، فما أحقنا أن نستأنس بشيخين جليلين ، أما أولهما فهو الذهبي وإليك قوله : وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل

العربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

وأما ثانيهما فالغزالي فاسمع إليه : وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسلامة ذهنه .

وبعد هذا فقولنا الرجل كثيرة أجلها في أصول الفقه وشروحه . يروى ابنه الفضل أبو رافع أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعائة مجلد تستعمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

ويهل هذا يا قوت فيقول : وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا .

ويغريني هذا إلى أن أعود إلى ابن حزم أمام خصومه ، وفوزهم دونه بقلوب الملوك وعقول العامة ، ثم نيلهم منه هذا النيل الذي أسلفنا بيانه . وقد عرفتك بالرجل صريحا قوالا ، لا يعي رأسه الرأي إلا انحدر منه على لسانه ، ودلتك على كتابه « طوق الحمامة » شاهد ما أقول .

ولكن ترى هذا وحده يمكن للخصوم من مقتل الرجل ، ويجمع العامة مع الخاصة عليه ؟ وأرى ابن خلكان يضم إلى الرأي رأيا ويزيدنا عن صراحة الرجل بيانا فيقول : وقد قال أبو العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين ، وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه . فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته فتمالخوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنه ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه .

وقد استجاب لهم هؤلاء وهؤلاء ، فهجر ابن حزم كرسي الحكم عن برم به بعد رغبة من الملوك عنه ، وبطش به العلماء بأيدي العامة لأنه ملك أن يقول

بلسانه في موروث عاداتهم وتقاليدهم ، وهذه وتلك من هوى العامة ودينهم ، فما أسرع هبتهم لها وأقرب ثورتهم .

بقى أن أزيدك عن سر خلاف الرجل عن نهج قومه وخروجه على مألوفهم ، وقد سُقت إليك طرفا وكتمت طرفا : قلت لك إن آباء ستة سبقوا الحزم في هذه البيئة الأندلسية ، وفيها بنوا بيوتهم ونسلوا ، وكلما مر بهم يوم أخذوا من البيئة وأعطوا ، ولم يظفر المهدبان حزم سنة أربع وثمانين وثلثمائة إلا بعد أن أظلت سماء الأندلس هذا البيت الحزمي قرابة قرن ونصف قرن . وغير هذا البيت صحبته هذه السنون أو فوقها دون أن تحور في بنيان عقله . وهنا مكان الطرف المكتوم ، فقد انتهت عند سوق آباء ابن حزم الى « يزيد » وعرفتكم به مولى ليزيد من أبي سفيان ولم أزد ، فاعرف أن هذا المولى كان على غير الإسلام فأسلم ، ومن الفرس أصله . ومن هنا التقت في ابن حزم طبيعتان ، إحداها موروثية والأخرى مكسوبة ، وقد مكنت الموروثه للمكسوبة أن تستشري ، فكان من هذا المزاج « ابن حزم » الناقد الحر الجريء ، ذو الأسلوب الجديد وصاحب النهج المبتدع . وأراني قد قلت كثيرا عن ابن حزم ولم أقل عن كتابه طوق الحمامة إلا في معرض الاستشهاد به عن صراحة الرجل وحرصه على أن يجمع بين بلوى موضوعه أدلة لا يستثنى .

وقبل أن أصلك بما حوى الكتاب وضم يعينني أن أنقل إليك أن الذين ترجموا لابن حزم سكتوا عن ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته ، غير « المقرئ » في فصح الطيب ، وابن القيم الجوزية في روضة المحبين . أما ابن القيم فقد صرح باسم الكتاب في غير موضع . وأما المقرئ فقد أورد هذا الخبر ، وأنا أورده هنا لأن الأصل المنشور يفقده ، قال المقرئ : قال ابن حزم في طوق الحمامة : إنه سر يوما هو وأبو عمر بن عبد الله صاحب الاستيعاب بسكة الخطاين بمدينة إشبيلية ، فلقبهما شاب حسن الوجه . فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر :

لم تر إلا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملاهى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتتد فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أبى ظاهري وأنى على ماأرى حتى يقوم دليل

ولسنا نحاول أن ننفي عن الرجل كتابه ، وأن نضع الشك موضع مايقن الناس به . ففى الكتاب من الأخبار المروية عن ابن حزم والحديث عن أبيه ومعاصريه مايدفع هذا . وإنما أردنا شيئا آخر نذكرك به حين نذكرك بتلك الجأحة التى ذهبت بكتب الشيخ أوقل نالت منها .

وقد عاش الشيخ بعدهما عمرا ليس بالقليل ، ولعله فرغ فى تلك الحقبة يلم ماتفرق ، ويجدد ماتحرق ، ويسد الخلل ويرقع الفتق .

ويكاد يلى علينا إهمال جل المتحدثين عن ابن حزم ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته أن الكتاب وضع بأخرة وقبل النكبة بقليل . وأقطع أنه كان بعد أن نبذ الوزارة ونبذته ، فقد حدث فى الكتاب عن نفسه ، فهو يقول : « وبيع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة . . . وفى إثر ذلك نكبتى جيران صاحب المرية ، إذ نقل إليه عني وعن محمد بن إسحاق صاحبى أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية .

وغير هذا — ولا أكاد أقطع — أن الكتاب — وكان استجابة لرغبة صديق فقيه محدث متأدب — لوعرف لابن حزم متقدما ، وهو على غرار يفيد منه خصومه ، لذاع اسمه وشاع ولم يخف على من خفى عنهم .

أعنى أنه لم يمكن له من الظهور والشيوع ، لذلك الذى حال بين الناس وابن حزم أن ينقلوا له ويأخذوا عنه .

وشىء أخير ، وهو أن يذكر « المقرئ » نقلا عن الكتاب ما ليس فى الكتاب

المعروف للناس ، ومنه يعود الشك أقرب إلى اليقين أن الكتاب كان من بين ما امتدت إليه الأيدي ، وأن ما وجد منه بين يدي فئة كان غير ما وجد منه عند غيرهم زيادة ونقصا ، وإن صح هذا فقد يصح غيره . ولعل تلك اللقطة تكاد تملى علينا بأن الكتاب منقوص ولا يزال منه في بطون الغيب أوراق ، لم يسعها مخطوط ولم تتصل بتدوين مدون ، ولا يعلم إلا الله مصيرها .

وبعد فإن يعرض ابن حزم للحب على ورع منه ونسك ، فيعالجه معالجة صريحة حازمة ، ويخوض فيه غير كاتم ولا مُبق في ذلك السرد الطريف ، وعلى هذا النهج القويم وبذلك الفكرة العميقة ، والنظرة الدقيقة ، لشيء يثير الإعجاب ويدعو إلى التقدير ، وكأنى بابن حزم حين عانى الحب وذاقه ، ووجد مذاقه على السنة من حوله من إخوان له ، رآه بابا للحديث ، وهو العالم الناظر ، فسجل فيه رأيه مستمدا شواهد من حوله ، وما أصدقها شواهد .

وأكد أقف ولا أمضى فبين يدي بحث طويل ممتع لأستاذ الجيل صاحب المعالي الدكتور طه حسين بك ، فصل فيه الرأي عن ابن حزم تفصيلا ، وربط بينه وبين « ستندال الايطالى » . وأفاض في الكلام على الرجلين ، وقد كنت حريصا على أن أنفع به فأسوقه هنا كله ، إذ اقتطاعه لا يغنى ، ولسكنى أكنفى .
أشير إلى مكانه من مجلة الكتاب المصرى فى العدد الخامس من المجلد الثانى الذى صدر فى فبراير سنة ١٩٤٦

بقى على بعد هذا أن هذا أن أعود إلى الصديق الناشر الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفى الذى هيا لى أن أنظر فى عمل له جدير بالقدر والشكر ، فأهنته على جهده وما عانى ، فى أصل شاه وجهه ، وانحرفت كلماته ، فقوم منه ما وسعه التقويم ، و صوب وحقق ، فجاء صورة مقروءة أقرب إلى السلامة وأدنى إلى الصواب . ولعل الزمن والسعى يسفانه بأصل جديد يحقق به الأمنية الأخيرة لهذا الكتاب القيم .

والله أسأل له ولى العون والتوفيق .